ظل الشمس التي لا تغيب

تأليف

الدكتور محمد كمال عرفه الرخاوي

الباحث والمستشار والخبير والفقيه والمؤلف القانوني والمحاضر الدولي في القانون

الإهداء

إلى روح أمي الطاهرة وروح أبي الطاهر داعياً الله لهما بالرحمة والمغفرة وجنة الخلد يا رب العالمين

وإلى ابنتي الحبيبة قرة عيني صبرينال المصرية الجزائرية جميلة الجميلات داعياً الله لها بالصحة والخير والسعادة

الفصل الأول

الفجر الذي لا يملكه أحد

جلس ريان على عتبة منزله الخشبي البسيط يراقب الشمس وهي تشق ظلام الليل ببطء شديد وكان الهواء بارداً يحمل رائحة التراب الندى بعد مطر ليلة طويلة لم يكن يرتدي سوى ثوب قطني بسيط وقدماه حافيتان تلامسان الأرض مباشرة كان يشعر بدفء الحياة يتسلل إلى عروقه بطريقة لم يشعر بها منذ عقود طويلة عندما كان ينام على حرير الفاخرة في أبراج زجاجية شاهقة كانت الشمس تشرق الآن على وجهه المجعد دون تمييز دون احترام لسلطة سابقة دون خوف من سطوة ماضٍ عظيم كان يمسك بيده كوباً فخارياً بسيطاً يحتوي على شاي ساخن كان البخار يتصاعد منه ليمتزج مع ضباب الصباح لقد أدرك في تلك اللحظة أن الشمس لا تملك لأحد وأن الضوء يسقط على الجميع بالتساوي سواء كنت سيداً في

برج أو فلاحاً في حقل كان هذا المشهد هو نهاية الرحلة الطويلة التي بدأها منذ سنوات عندما كان يظن أن العالم يدور حول محوره الوحيد لقد أغلق عينيه قليلاً واستنشق الهواء النقي متذكراً كل الخطوات التي قادته إلى هذه العتبة البعيدة عن ضجيج المدن وعن وهج الأضواء الصناعية التي كانت تخفي النجوم كان يعلم أن الناس في المدينة الكبيرة ربما يبحثون عنه الآن ربما يظنون أنه مات أو هرب أو يخطط للعودة غير أنه كان يعلم يقيناً أن الرجل الذي يبحثون عنه قد مات فعلياً في تلك الليلة العاصفة التي غادر فيها البرج وماجلس أمامه الآن إلا روحاً جديدة ولدت من رماد الكبرياء لقد كان هذا الفصل هو الخاتمة الحقيقية لقصة القوة والضعف وهو البداية لحياة جديدة لا تقاس بالأرقام ولا بالأملاك بل تقاس بالسلام الداخلي والرضا بما قسم الله للإنسان في هذه الأرض الفانية

الفصل الثاني

بداية الصعود من الطين

قبل عشرين عاماً كان ريان شاباً فقيراً يقف على نفس الأرض التي يجلس عليها الآن لكنه كان ينظر إليها بعين الحسرة وليس بعين الرضا كان يحلم بأن يترك هذا المكان إلى الأبد وأن يبني مجداً لا ينسى وكان يعمل في البناء يحمل الطوب على ظهره تحت شمس حارقة كان يتعلم من كل حجر يرفعه درساً في الصلابة ومن كل جدار يقيمه درساً في الارتفاع لقد كان ينظر إلى المدينة من بعيد وكأنها وحش يحتاج إلى من يروضه وكان يقسم في نفسه أن يكون هو ذلك السيد الذي يسيطر على الوحش لا أن يكون فريسة له كانت عيناه تلمعان بطموح جارف لم يكن يعرف حدوداً للأخلاق أو للقيم في سبيل الوصول كان يرى أن العالم غابة وأن القانون الوحيد فيها هو قانون البقاء للأقوى وكان يبدأ كل يوم بعمل شاق وينام كل ليلة وهو يحلم بالغد الذي يملك فيه المفاتيح كلها لقد كان يجمع كل قرش يوفره من عرق جبينه ليشتري كتاباً عن الإدارة أو عن الاستراتيجيات العسكرية كان يدرس كيف سقطت الإمبراطوريات وكيف قامت ليكرر نفس المسار لكن بنجاح أكبر لم يكن يدرك أن البذور التي يزرعها الآن من طموح جارف ستثمر لاحقاً شوكاً

يجرح يده حين يحاول قطف الثمرة كان هذا هو الفصل الأول من قصة السقوط الذي لم يبدأ إلا بعد وصوله للقمة

الفصل الثالث

بناء البرج الأول

بدأ ريان في بناء أول مشاريعه العقارية وكانت أرضاً قاحلة اشتراها بثمن بخس من أهل القرية الذين لم يدركوا قيمتها المستقبلية كان يعمل بنفسه في الموقع يوجه العمال ويضع الخطط ويحاسب على كل قرش كان ينام في خيمة منصوبة في وسط الأرض يحلم بأن تكون هذه الخيمة يوماً ما قصراً كان ينظر إلى السماء ويتخيل برجاً يخترق السحاب كان يعتقد أن الارتفاع هو simbol القوة وأن من يعلو فوق الناس يرى ما لا يرون وكان ينجح في كل خطوة يخطوها كان الحظ يحالفه أو ربما كانت دهائه هو من يصنع الحظ بدأ الناس يلتفون حوله يرون فيه القائد الذي ينتظرونه كان

يقدم لهم وعوداً كبيرة بالثراء والرفاهية وكان يفي بوعوده في البداية ليكسب ثقتهم كان يبني السمعة قبل أن يبني الجدران كان يعرف أن الثقة هي العملة الأهم في سوق الطموح وكان يستثمر فيها بذكاء merchant تجاري محنك لم يكن يتردد في استخدام أي وسيلة لتحقيق الهدف سواء كانت قانونية أو على حافة القانون كان يرى أن الغاية تبرر الوسيلة وأن التاريخ يكتبه المنتصرون فقط وكان البرج الأول ينمو طوباً طوباً نحو السماء وكأنه يتحدى قوانين الجاذبية والقدر معاً

الفصل الرابع

العدو الأول في المرآة

عندما اكتمل البرج الأول وقف ريان في أعلى شرفة فيه ينظر إلى المدينة التي كانت تبدو تحت قدميه كالنمل كان يشعر بنشوة السلطة تغمر جسده كله لكن في تلك اللحظة بالذات نظر إلى المرآة المثبتة

على الجدار الزجاجي فرأى عينين مختلفتين لم تكن عيناي الشاب الفقير الذي كان يحمل الطوب بل كانت عيناي رجل آخر يلمع فيهما بريق غريب كان بريق الجشع والغرور لقد كان هذا هو العدو الأول الذي لم ينتبه له كان العدو ليس في الخارج بين المنافسين بل في الداخل بين أضلاع صدره كان يبدأ في الحديث مع نفسه بصوت عالٍ يمدح نفسه ويقدس إنجازاته كان يبدأ في تصديق الدعاية التي يروجها عنه الناس لقد بدأ يظن أنه فعلاً استثنائي وأنه فوق القانون البشري كانت هذه هي اللحظة التي بدأ فيها الشق الأول في الجدار الداخلي لنفسه كان يعتقد أن القوة تمنحه الحق في كل شيء وكان يبدأ في تجاهل النصائح التي كان يقدمها له مستشاروه المخلصون كان يظن أن رأيهم أصبح قديماً وغير مناسب لعصره الجديد لقد كان البرج يعكس صورته مشوهة مكبرة وكأنه عملاق بينما كان في الحقيقة مجرد إنسان ضعيف أمام قوانين الكون الثابتة التي لا تتغير بأبراج الزجاج

الفصل الخامس

أول كذبة بيضاء

لإتمام مشروعٍ ثانٍ كبير احتاج ريان إلى تمويل ضخم لم يكن متاحاً في السوق بالطرق التقليدية فقرر أن يلجأ إلى حيلة مالية معقدة كانت تبدو قانونية من الخارج لكنها في الجوهر تعتمد على تضخيم الأرقام وإخفاء الديون كان يبرر لنفسه أن هذه مجرد خطة مؤقتة وأنه سيغطي العجز بمجرد نجاح المشروع الجديد كان يقول لنفسه إن هذه كذبة بيضاء لا ضرر منها لتحقيق مصلحة أكبر كانت هذه هي المرة الأولى التي ينحني فيها ريان عن طريق الصدق الذي تربى عليه في صغره كان يشعر بوخز خفيف في ضميره لكنه كان يسكته بصوت العقلانية والمصلحة كان يبدأ في تعلم لغة الأرقام المزيفة التي يتحدث بها كبار رجال الأعمال في العالم كان يكتشف أن الحقيقة مرية وأن الوهم هو ما يبيع بشكل أفضل كان يوقع على أوراق لا يقرأ تفاصيلها الدقيقة متوكلاً على ثقة الناس به كانت تلك الثقة هي رأس ماله الحقيقي الذي بدأ في صرفه دون حساب كان يعتقد أن النجاح سيغطي على كل العيوب وأن النهاية السعيدة تبرر كل

المقدمات الملتوية لم يكن يدرك أن الكذبة الأولى هي باب يدخل منه الشيطان إلى حياة الإنسان ليخرجها من السيطرة تماماً

الفصل السادس

الوصول إلى القمة

بعد سنوات من الكدح والصعود المتواصل وصل ريان إلى ما كان يسميه القمة كانت شركته تسيطر على معظم المشاريع الحيوية في المدينة وكان اسمه يتردد في كل مجالس الأعمال والسياسة كان يدعى إلى الحفلات الفاخرة حيث يتصافح مع كبار المسؤولين وكان يظن أنه أصبح نداً لهم بل ومتحكماً في قراراتهم كان يملك أسطولاً من السيارات الفاخرة وقصوراً في أماكن متعددة وكان يظن أن هذا هو معنى السعادة الحقيقية كان ينظر إلى الناس من خلف زجاج سيارته المصفحة وكأنهم كائنات من عالم آخر كان يشعر بأنه قد تجاوز مرحلة الحاجة إلى البشر وأنه أصبح بحاجة

فقط إلى الطاعة كان يقيم الولائم الكبيرة ويدعو عليها النخب ليثبت نفوذه وكان يستمتع برؤية التنافس بين الناس على كسب رضاه كان يوزع المنح والعطايا وكأنه ملك قديم يوزع الإقطاعيات كان يعتقد أن هذا الولاء المصطنع هو حب حقيقي وكان يجهل أن الناس تحب العطاء ولا تحب المعطي عندما يتكبر عليهم كانت هذه هي ذروة الوهم التي يسبق السقوط مباشرة حيث يظن الإنسان أنه في أمان تام بينما هو على حافة هاوية سحيقة

الفصل السابع

صمت القاعة الذهبية

في إحدى الاجتماعات الكبرى في قاعته الذهبية المزدانة بالثريات البلورية لاحظ ريان شيئاً غريباً كان الجميع يصمت عندما يدخل ولا يجرؤ أحد على رفع صوته أمامه كانت الآراء كلها متطابقة مع رأيه دون نقاش حقيقي كان يشعر بالراحة في البداية لظنه أن

هذا هو الانسجام التام غير أنه مع الوقت بدأ يشعر بالاختناق كان يدرك أن هذا الصمت ليس احتراماً بل هو خوف كان يفتقد إلى الصوت المعارض الذي كان ينقذه من الأخطاء في الماضي كان المستشارون قد تحولوا إلى مجرد موظفين ينفذون الأوامر دون تفكير نقدي كان يظن أن هذا هو الكمال الإداري بينما كان في الحقيقة بداية للشلل المؤسسي كان يبدأ في اتخاذ قرارات متسرعة لأن لا أحد يجرؤ على تحذيره من العواقب كان يوقع على عقود ضخمة دون دراسة كافية لأن الجميع كان يمدح حدسه التجاري كانت القاعة الذهبية قد تحولت إلى قاعة صدى لا يسمع فيها الإنسان إلا صوت نفسه مرتداً إليه مشوهاً بالمدح الزائف كان هذا الصمت هو الجرس الأول الذي كان يدق محذراً من خطر العزلة الاستراتيجية التي تحيط به من كل جانب

الفصل الثامن

الشق الأول في الجدار

بدأت تظهر مشاكل مالية في أحد المشاريع الكبرى لم يكن متوقعاً أن تحدث بهذه السرعة كان المديرون يحاولون إخفاء الحقيقة عن ريان خوفاً من غضبه كانوا يقدمون تقارير وردية لا تعكس الواقع كانت الأرقام الحقيقية حمراء كالجروح لكن التقارير كانت خضراء كالربح المفترض كان ريان يوقع على صرف أموال لمشاريع وهمية يظن أنها قائمة كان يبدأ في الشك عندما يرى أن العوائد لا تأتي كما هو مخطط له كان يسأل فيجيبونه بتبريرات معقدة يقبلها لأنه يريد أن يقبلها كان يرفض مواجهة الحقيقة لأن مواجهتها تعني الاعتراف بالخطأ وكان كبرياؤه يمنعهُ من الاعتراف بالخطأ كان الجدار الذي بناه من الثقة يبدأ في التشقق من الداخل بسبب الضغط الهائل للأكاذيب المتراكمة كان يشعر بصداع مستمر لم يجد له الأطباء سبباً عضوياً كان السبب هو الضغط النفسي الناتج عن العيش في وهم كبير بدأ يتصادم مع واقع قاسٍ يحاول الاختباء منه كان الشق صغيراً في البداية لكنه كان كافياً لتسرب الضوء الكاشف إلى داخل الغرفة المظلمة التي يعيش فيها

الفصل التاسع

تقرير الأرقام الحمراء

في ليلة عاصفة دخل عليه المدير المالي الجديد وهو رجل لم يكن من دائرته المقربة كان يحمل ملفاً سميكاً وضعه على المكتب دون مقدمة كانت صفحاته تحتوي على الحقائق العارية دون تجميل كانت الأرقام تشير إلى كارثة وشيكة كان الدين يتضاعف والمشاريع متعثرة والسيولة شبه منعدمة حاول ريان أن يصرخ في وجهه ويتهمه بالخيانة لكن عينيه وقعت على الأرقام التي لا تكذب كان يشعر وكأن الأرض تدور تحت قدميه كانت السنوات من الجهد تبخر في لحظات أمام حقيقة رياضية لا تقبل الجدل كان المدير المالي ينظر إليه بصمت انتظاراً لقرار كان ريان يعلم أن القرار الصحيح هو الإفصاح والبدء في خطة إنقاذ شاملة لكن قرار الكبرياء كان أقوى كان يرفض أن يرى الناس انهياره كان يفضل تأجيل الكارثة على مواجهتها كان يظن أن الوقت سيعطيه حلاً سحرياً كما حدث في الماضي غير أنه

لم يدرك أن الوقت في هذه المرة كان يعمل ضده كان هذا التقرير هو بداية العد التنازلي الحقيقي لسقوط الإمبراطورية التي بنيت على الرمل

الفصل العاشر

خيانة الأقربين

بدأت الشائعات تنتشر في الأوساط المالية عن تعثر شركة ريان كان الحلفاء الذين كانوا يبتسمون في وجهه بالأمس يبدأون في الانسحاب من المشاريع المشتركة كانوا يتصلون به باعتذارات باردة ويغلقون الخطوط قبل أن ينهي كلامه كان يشعر بالخذلان يقطع أوصاله كان يظن أن هذه العلاقات استراتيجية قائمة على المصالح المتبادلة لكنه اكتشف أنها كانت قائمة على نجاحه فقط عندما توقف النجاح توقفت المصالح وكان أقرب الناس إليه من كانوا أسرع في الطعن من الخلف كان يكتشف أن الولاء الذي اشتراه بالمال لا يساوي شيئاً أمام خوفهم على مصالحهم الخاصة كان

يشعر بالوحدة في قمة برجه كان الهاتف لا يرن إلا بأخبار سيئة أو مطالبات بالسداد كان يبدأ في عزل نفسه أكثر خوفاً من مواجهة الوجوه التي كانت تبجله بالأمس كانت الخيانة تأتي من حيث لا يحتسب من أشخاص أقسموا له بالولاء الأبدي كان يدرك الآن أن العهود في عالم المال تُكتب بالماء وتُمحى بأول عاصفة مالية تهب على السوق

الفصل الحادي عشر

ليلة العواصف الداخلية

قضى ريان ليلة كاملة في مكتبه لم يذق فيها طعم نوم كانت العاصفة خارج البرج تضرب الزجاج بقوة وكانت العاصفة داخل نفسه أقوى كان يجلس في الظلام لا يشعل الأضواء كان يريد أن يختفي عن عينيه وعن عيون العالم كان يتذكر كل خطوة خاطئة قادته إلى هذه اللحظة كان يلوم نفسه ويلوم الآخرين وكان يشعر بغضب عارم لم يجد له متنفساً كان يريد كسر كل

شيء حوله لكن يده كانت ترتعش من الضعف كان يبدأ في البكاء بصمت لم يكن يبكي على المال بل كان يبكي على الثقة التي فقدها في نفسه كان يدرك أنه خسر المعركة قبل أن يخسر الحرب كان يشعر بأن الروح قد غادرت الجسد وبقي الهيكل العظمي للإمبراطورية قائماً كانت تلك الليلة هي نقطة التحول النفسي حيث بدأ يفكر في الهروب ليس من المدينة بل من الشخص الذي أصبح عليه كان يريد أن يقتل ريان القديم ليبدأ حياة جديدة لكن الموت النفسي أصعب من الموت الجسدي

الفصل الثاني عشر

المحاكمة في الغرفة المغلقة

قرر ريان أن يحاكم نفسه قبل أن يحاكمه الناس أغلق باب مكتبه ومنع دخول أي شخص كان يجلس على كرسيه ويدور ببطء يواجه الحائط كان يتخيل أن الحائط هو قاضٍ صامت يستمع إلى اعترافاته كان يبدأ في

سرد جرائمه المالية والأخلاقية واحدة تلو الأخرى كان يعترف بأنه استغل ثقة الناس وأنه بنى مجده على أوهام كان يعترف بأنه ضحى بالصداقة من أجل الصفقة كان يعترف بأنه نسي أصله الفقير وتكبر على من كانوا مثله كانت المحاكمة قاسية جداً ولم يكن فيها محامٍ للدفاع كان الحكم الصادر هو الإدانة الكاملة كان يشعر بالذنب يثقل كاهله أكثر من الديون كان يدرك أن الغفران لا يأتي من البنوك ولا من المحاكم بل يأتي من الداخل فقط كان يخرج من هذه الجلسة وقد قرر مصيره كان يعرف أن البقاء في البرج يعني الانتظار حتى السقوط المهين وكان يريد أن يختار طريقة سقوطه بنفسه كان يريد أن يتحكم في النهاية كما حاول التحكم في البداية رغم أن القدر كان له رأي آخر في كل ذلك

الفصل الثالث عشر

خطة الاختفاء

بدأ ريان يخطط لاختفائه بعناية فائقة لم يكن يريد ضجيجاً إعلامياً حول هروبه كان يريد أن يختفي كما تختفي قطرة ماء في المحيط كان يبدأ في تحويل أصول صغيرة إلى نقد سري كان يجهز حقيبة سفر بسيطة تحتوي على ملابس قديمة وبعض النقود كان يترك كل مفاتيح السيارات الفاخرة والقصور في مكانها كان يريد أن يترك الرسالة واضحة بأن المال لا قيمة له أمام الحرية كان يراقب الكاميرات الأمنية ويتأكد من وجود ثغرة زمنية يمكنه استغلالها للخروج دون أن يراه أحد كان يشعر بقلب يدق بقوة لم يشعر بها منذ سنوات كانت هي قوة الخوف ممزوجة بقوة الأمل كان يودع حياته القديمة بصمت دون وداع كان يعلم أن الوداع سيجعله يتردد وكان يريد أن تكون الخطوة حاسمة لا رجعة فيها كان يخطط للذهاب إلى المكان الذي بدأ منه حيث لا يظن أحد أنه سيعود إليه كان هذا القرار هو أول قرار حر يتخذه منذ سنوات بعيداً عن ضغوط السوق وتوقعات الناس

الفصل الرابع عشر

النزول من البرج

في ساعة متأخرة من الليل غادر ريان مكتبه سار في الممرات الطويلة التي كانت تعج بالحياة بالنهار وكانت الآن خالية كالقبور كان يسمع صدى خطواته على الرخام البارد كان يشعر بأن كل خطوة تبتعد به عن ماضيه كانت المصاعد تتحرك ببطء وكأنها تودعه كان يخرج من الباب الخلفي للمبنى حيث تنتظره سيارة أجرة قديمة كان قد حجزها مسبقاً باسم مستعار كان السائق لا يعرف من هو كان ينظر إليه كأي رجل متعب يبحث عن وجهة كان يجلس في المقعد الخلفي ويراقب الأضواء تتلاشى في المرآة الخلفية كان البرج يختفي في الظلام وكأنه لم يكن موجوداً أبداً كان يشعر بخفة غريبة في جسده كأنه قد تخلص من حمل ثقيل كان يحملها على ظهره طوال السنوات الماضية كانت المدينة تنام وهو يستيقظ على حياة جديدة كانت تلك الليلة هي ليلة الميلاد الثاني لريان الإنسان بعد موت ريان التاجر

الفصل الخامس عشر

الطريق إلى اللاعودة

سارت السيارة في الطرق السريعة المغادرة للمدينة كانت الأضواء تخفت كلما ابتعدوا عن المركز كان ريان ينظر من النافذة يرى الأشجار والحقول تحل محل الأبراج كان يشعر بأن الهواء يتغير يصبح أنقى وأخف كان السائق يحاول بدء حديث بسيط لكن ريان كان يفضل الصمت كان يريد أن يستمع إلى صوت محرك السيارة فقط كان يريد أن يقطع المسافة بينه وبين ماضيه بأقصى سرعة كان يتذكر وجوه الناس الذين تركهم وراءه ويتساءل إذا كانوا قد اكتشفوا غيابهُ بعد كان يتخيل الفوضى التي ستعم المكان في الصباح عندما يأتون ولا يجدونه كان يبتسم ابتسامة باهتة لأنه يعلم أن الفوضى مؤقتة وأن الحياة ستستمر بدونه كما استمرت قبله كان الطريق طويلاً ومظلمًا لكنه كان يرى في نهايته نوراً خافتاً كان نور الفجر الذي ينتظره في القرية النائية كان يعلم أن الطريق إلى الحرية وعِرٌ لكنه يستحق العناء كله

الفصل السادس عشر

الوصول إلى الأرض

وصلت السيارة إلى القرية الصغيرة مع شروق الشمس الأول نزل ريان منها ودفع للسائق أضعاف الأجر دون أن يتكلم نظر السائق إلى النقود ثم إلى الرجل العجوز الذي يرتدي ملابس بسيطة ولم يدرك أنه كان يتحدث إلى أحد أثرياء المدينة غادر السائق مسرعاً وكأنه يخشى أن يطاله شيء من غموض هذا الرجل وقف ريان في وسط الطريق الترابي تنفس بعمق كانت الرائحة رائحة تراب ومطر وحيوانات كانت رائحة الحياة الحقيقية كان يبدأ في المشي نحو منزله القديم الذي كان قد اشتراه سراً قبل سنوات ولم يخبر أحداً به كان المفتاح في جيبه يثقل عليه قليلاً لكنه كان مفتاحاً لحرية حقيقية كان يفتح الباب ويدخل إلى غرفات بسيطة خالية من الأثاث الفاخر كان يجلس على الأرض ويضع رأسه بين يديه كان يبكي مرة أخرى

لكن هذه المرة كانت دموع الغسل والتطهير كان قد عاد إلى حيث بدأ لكن بقلب مختلف تماماً عن ذلك القلب الذي غادر منه منذ عشرين عاماً

الفصل السابع عشر

الحياة في الخفاء

بدأ ريان يعيش في القرية تحت اسم مستعار كان يعمل في الحقول مع الفلاحين البسطاء كان يشاركهم العمل الشاق تحت الشمس كان يتعلم منهم الصبر على قسوة الحياة وكان يكتشف أن التعب الجسدي يريح الروح من تعب النفس كان يأكل طعاماً بسيطاً من خضار زرعه بنفسه كان طعمه ألذ من كل الولائم التي أكلها في قصوره كان ينام مبكراً ويستيقظ مع الفجر كانت حياته خالية من التعقيدات المالية والإدارية كان لا يملك هاتفاً ذكياً ولا يشاهد أخباراً كان العالم الخارجي قد توقف بالنسبة له كان يكتفي بما حوله من طبيعة وبشر كان الناس في القرية يتعاملون معه

كرجل طيب غريب عنهم لا يسألون عن ماضيه وكان هو يقدر لهم هذا الصمت كان يكتشف أن السعادة لا تحتاج إلى إعلان ولا إلى شهادات تقدير كانت تكفيها ابتسامة رضا من قلب مطمئن كان هذا الفصل هو اختبار حقيقي لمدى قدرته على الاستمرار في هذا النمط الجديد بعيداً عن إدمان الأضواء

الفصل الثامن عشر

صدى الغياب في المدينة

في المدينة الكبيرة كانت الأخبار تتناقل عن اختفاء ريان كانت هناك تكهنات كثيرة بين الموت والهرب والخطف كانت الأسهم تهوي وكانت الشركات التابعة تتداعى مثل قطع الدومينو كان الناس الذين اعتمدوا عليه يشعرون بالضياع وكان البعض يشعر بالغضب لخيانته لهم وكان البعض الآخر يشعر بالشماتة لسقوطه كانت الصحف تخصص صفحات كاملة لتحليل أسباب الاختفاء كانت هناك لجان تحقيق تبحث في أوراقه المالية

وتكشف عن حجم الكارثة كانت الأسماء الكبيرة التي كانت ترتبط به تبدأ في التبرؤ منه كان كل واحد يحاول إنقاذ نفسه قبل أن يسحبهم الجميع إلى القاع كانت المدينة تغلي بالفوضى المالية لفترة ثم بدأت تستعيد توازنها تدريجياً كان الناس يدركون أن الاعتماد على شخص واحد هو خطأ استراتيجي فادح كان غياب ريان درساً قاسياً للسوق تعلمه بثمن غال كان البرج الذي تركه وراءه أصبح شاهداً على غرور إنسان ظن أنه خالد بينما هو مجرد فقاعة صابون كبيرة انفجرت بلمسة واقع قاسية

الفصل التاسع عشر

رسالة من الماضي

بعد أشهر من استقرار ريان في القرية وصله خطاب عبر بريد قديم لم يكن عليه عنوان مرسل واضح كان الخطاب من شخص كان قد ظلمه في بداية مشواره التجاري كان الشخص writes يكتب له أنه علم بمكانه

وأنه لا يحمل له أي ضغينة وأنه سامحه منذ زمن طويل كان يكتب له أن الحياة قصيرة جداً للحقد وأن الله واسع المغفرة كانت الكلمات بسيطة لكنها أثرت في ريان بعمق أكبر من كل التقارير المالية التي قرأها في حياته كان يشعر بأن هذا العفو هو هدية سماوية لم يستحقها كان يمسك بالورقة ويرفعها نحو السماء وكأنه يقدم شكوى وامتنان في آن واحد كان يدرك أن المسامحة هي الطريق الوحيد للسلام الداخلي كان يقرر أن يكتب رداً لكن ثم يقرر أن الصمت أفضل كان يريد أن يترك الماضي وراءه تماماً ولا يفتح ملفات قديمة كانت الرسالة هي الختم النهائي على فصل الماضي المؤلم وبداية لفصل النقاء الروحي الذي كان يبحث عنه منذ زمن بعيد في متاهات المال والسلطة

الفصل العشرين

مواجهة الوفد

جاء وفد من المدينة إلى القرية يبحث عن ريان كانوا

يمثلون مجموعة من الدائنين والمستثمرين الذين أملوا في عودته لإنقاذ ما تبقى كانوا يقفون أمام بابه الخشبي يطرقون بخجل كان ريان يراقبهم من خلف الستار كان يرى الوجوه التي كانت تبجله بالأمس وهي الآن تنتظر رحمته كان يشعر بعدم رغبة في فتح الباب كان يعرف أن فتح الباب يعني العودة إلى نفس الدوامة التي هرب منها كان يقرر في النهاية أن لا يظهر لهم كان يترك رسالة مكتوبة على الباب تقول إن الرجل الذي تبحثون عنه لم يعد موجوداً وكان يغادر من الخلف إلى الحقل كان يتركهم في حيرة من أمرهم كان هذا الرفض هو اختبار نهائي لإرادته في البقاء بعيداً عن عالمه القديم كان يعلم أنهم سيغضبون وقد يهددونه لكنه لم يعد يخاف التهديدات بعد أن ذاق طعم الموت النفسي والبعث الجديد كان وقوفه أمام الباب المغلق هو وقفة عز أخيرة ضد إغراءات العودة إلى الجحيم الذي خرج منه بسلام

الفصل الحادي والعشرون

فلسفة التراب

بدأ ريان يكتب مذكراته على أوراق بسيطة كان يكتب عن فلسفة التراب وكيف أن الإنسان منه وإليه يعود كان يكتب عن وهم الأبراج وكيف أن الأساس الحقيقي هو الأرض التي نمشي عليها كان يكتب عن الفرق بين القوة والسلطة وكيف أن القوة الحقيقية هي قوة النفس على هواها كان يكتب بلغة بسيطة خالية من المصطلحات المعقدة التي كان يستخدمها في اجتماعاته كان يريد أن يترك إرثاً من الحكمة وليس من الأرقام كان يكتب عن تجربته كدرس لكل طموح جارف كان يحذر من فخ النجاح السريع وكان ينصح بالصبر والتدرج كان يكتب عن أهمية العلاقات الإنسانية الحقيقية بعيداً عن المصالح كان يرى أن هذه الأوراق هي ثروته الحقيقية التي لن تنهار ولن تتأثر بأسواق المال كان يملأ الدفاتر صفحة تلو الأخرى وكان يشعر بأن كل كلمة يكتبها هي حجر يزيله عن صدره كان الكتابة هي العلاج النهائي لجراحه القديمة ولطخة ضميره التي حاول غسلها طوال هذه المدة في عزلة القرية الهادئة

الفصل الثاني والعشرون

صمت البرج المهجور

في المدينة كان البرج الذي بناه ريان لا يزال قائماً لكنه كان مهجوراً تماماً كانت النوافذ الزجاجية تعكس السماء الرمادية وكأنها عيون ميتة كان الحراس يقفون على الأبواب لكن لا أحد يدخل كان الصدى يتردد في القاعات الفارغة كان الرياح تدخل من النوافذ المفتوحة وتحرك الستائر الثقيلة كأنها أشباح تبحث عن صاحبها كان الناس يمرون بجانبه وينظرون إليه بعين العبرة كان يذكّرهم بأن المال لا يضمن البقاء وأن القوة الوهمية زائلة كان البرج أصبح معلماً تاريخياً لسقوط الغرور البشري كانت هناك إشاعات عن هدمه وأخرى عن تحويله إلى متحف لكن القرار كان معلقاً كان الجميع يخشى لمس إرث ريان خوفاً من لعنة الفشل التي حلت به كان الصمت حول البرج أعلى صوتاً من أي ضجيج حدث فيه في أيام مجده كان يرمز إلى نهاية عصر كامل من الوهم وبداية عصر جديد من الحذر

والواقعية في عالم الأعمال كان الخراب المحيط بالبرج هو الصورة الأصدق لحالة صاحبه الداخلية قبل أن يهرب ليبحث عن السلام في مكان آخر بعيد عن بريق الزجاج الخادع

الفصل الثالث والعشرون

دروس من الفلاحين

كان ريان يجلس كل مساء مع كبار الفلاحين في القرية يستمع إلى حكاياتهم عن الأرض والمطر والمواسم كان يتعلم منهم أن الصبر هو سر الزراعة وأن العجلة تفسد المحصول كان يربط هذا الدرس بحياته السابقة حيث كان يريد كل شيء بسرعة فكانت النتيجة الخسارة كان يتعلم منهم أن الثقة بالله هي رأس المال الوحيد الذي لا ينضب كان يراهم يتقبلون القحط والخصب بنفس الرضا وكان هذا الدرس هو الأصعب عليه لأنه كان معتاداً على التحكم في كل النتائج كان يبدأ في تطبيق هذه الدروس في حياته اليومية فكان

يعمل بجد ويتوكل على الله في النتيجة كان يشعر بأن علاقته مع الخالق قد أصبحت مباشرة دون وسطاء من مال أو جاه كان يكتشف أن الصلاة في مسجد القرية البسيط لها طعم مختلف عن الصلاة في مساجد القصور الخاصة كان البساطة هي المفتاح الذي فتح له أبواباً من الفهم كانت مغلقة أمامه عندما كان مشغولاً بإحصاء أرباحه اليومية في عالم المال المضطرب

الفصل الرابع والعشرون

المرض والشفاء

أصيب ريان بوعكة صحية بسيطة لم تكن خطيرة لكنها أخافته لأنه اعتاد على جسم قوي لا يتعب كان الأطباء في المدينة سيعطونه أدوية باهظة الثمن لكن في القرية عالجته أعشاب بسيطة وراحة نفسية كان يدرك أن جزءاً كبيراً من مرضه السابق كان نفسياً ناتجاً عن الضغط والقلق كان الشفاء يأتي له مع كل نفس هادئ يأخذه في الحقل كان يبدأ في appreciation

تقدير نعمة الصحة التي كان يغفل عنها عندما كان يملك كل شيء ولا يملك وقتاً للاستمتاع به كان يدرك أن الجسد أمانة يجب الحفاظ عليها وليس أداة للاستغلال حتى الانهيار كان هذا الدرس الجسدي مكملاً للدرس النفسي الذي تعلمه في العزلة كان يبدأ في الاعتناء بغذائه ونومه وكان يشعر بأن طاقته تعود إليه تدريجياً لكن بطاقة مختلفة هادئة ومستقرة لم تعد تعتمد على adrenalin التوتر والمنافسة كان الشفاء الحقيقي هو شفاء الروح من مرض الكبر الذي كان يفتك بها صامتاً طوال سنوات صعوده الصاروخي نحو القمة الوهمية التي ظنها حقيقية

الفصل الخامس والعشرون

الكتابة كرسالة

أكمل ريان كتابة مذكراته وأصبح لديه كتاب كامل يروي قصته من البداية إلى النهاية كان يتردد في نشره خوفاً من عودة الأضواء لكن صديقاً قديماً نصحه بأن

الحقيقة يجب أن تُقال لعلها تنقذ آخرين كان يقرر أن ينشره تحت اسم مستعار دون ذكر تفاصيل قد تكشف هويته كان يريد أن تكون العبرة عامة وليس الشخص كان يرى أن الكتاب هو طفله الروحي الذي سيخلده أكثر من أي برج بناه كان يكتب عن الألم والأمل وعن السقوط والنهوض كان يريد أن يكون صوتاً للضمير في عالم فقد بوصلته الأخلاقية كان يرسل المخطوطة إلى دار نشر صغيرة بعيدة عن أضواء العاصمة كان يكتفي بأن يعرف أن الكتاب سيصل إلى من يحتاجه دون أن ينتظر شهرة أو مكافأة مادية كان هذا العمل هو الصدقة الجارية التي أراد أن يتركها وراءه قبل أن يغادر هذه الدنيا كان يعلم أن الكلمات قد تبقى عندما تتحجر الأموال وتصبح الأبراج أطلالاً يدرسها المؤرخون كدروس في الغرور البشري والعقوبة الإلهية

الفصل السادس والعشرون

بحث المدينة المستحيل

استمرت محاولات المدينة للوصول إلى ريان لكنها باءت بالفشل الذريع كان المحققون الخاصون يصلون إلى طريق مسدود في كل مرة كان الأثر يبرد كلما مر الوقت كان الناس begins يبدأون في نسيانه تدريجياً كانت الحياة تستمر بدونه كما توقع كان البرج يُباع في مزاد علني لشركة أخرى كانت تبدأ في إعادة ترميمه ليصبح رمزاً جديداً لسلطة جديدة كان ريان يقرأ عن هذا في جريدة قديمة وصلت إلى القرية بالصدفة كان يبتسم لأنه يعلم أن المالك الجديد سيمر بنفس المصير إذا لم يتعلم من الدرس كان يدرك أن الدور يتكرر وأن التاريخ يعيد نفسه لأن البشر لا يتعلمون من أخطاء غيرهم كان يشعر بالشفقة على من سيخلفه في المنصب لأنه س يحمل نفس الأعباء ونفس الوهم كان هو الوحيد الذي كسر الحلقة وخرج من اللعبة قبل أن تخسر الجميع قطعهم على الطاولة كان خروجه هو الانتصار الحقيقي الوحيد في هذه المعركة غير المتكافئة بين الإنسان وطموحه الجارف الذي لا يشبع

الفصل السابع والعشرون

الرفض النهائي

جاءته رسالة أخرى تعرض عليه صفقة ضخمة لاستثمار خبرته في مشروع جديد خارج البلاد كانت العرض مغرياً جداً ويضمن له عودة الثروة والنفوذ لكن بشروط تحفظ له كرامته كان ريان يقرأ الرسالة تحت شجرة زيتون قديمة في حقله كان الرياح تحرك الأوراق فوق رأسه وكأنها تنصحه بالرفض كان يمزق الرسالة ببطء ويلقي القطع في التراب كان يقرر أن لا يرد حتى لا يفتح باباً للحوار كان يعرف أن الشيطان يعود دائماً بأقوى الحيل عندما يضعف الإنسان كان يريد أن يحصن نفسه بالرضا بما لديه كان يشعر أن ما يملكه الآن من سلام لا يقدر بثمن ولا يمكن شراؤه بكل أموال العالم كان الرفض هو الدرع الأخير الذي حمى عزلته المقدسة من غزو العالم الخارجي الذي لم يعد ينتمي إليه كان يودع فكرة العودة نهائياً وي bury يدفنها في التراب مع بقايا الرسالة الممزقة لتكون شاهداً على قراره الحاسم في عدم العودة إلى الوراء أبداً

الفصل الثامن والعشرون

توازن الكون

بدأ ريان يلاحظ أن الكون يتوازن بطريقة عجيبة حيث سقطت شركات كبرى أخرى في المدينة بعد سقوطه كان يدرك أنه لم يكن الوحيد في هذه الرحلة وأن السنن الإلهية تطال الجميع كان يشعر بأن ما حدث له كان جزءاً من نظام أكبر يحفظ التوازن ويمنع الطغيان كان يقرأ الأخبار القليلة التي تصله ويرى أن العبرة تعم الجميع كان يكتب في مذكراته عن قانون التوازن وكيف أن كل صعود جنوني يتبعه هبوط حتمي كان ينصح القراء بعدم محاربة هذا القانون بل الانسجام معه كان يرى أن النجاح الحقيقي هو النجاح المتوازن الذي لا يطغى ولا يجور كان يدعو إلى اقتصاد أخلاقي يراعي الإنسان قبل الربح كان يرى أن مستقبل العالم يعتمد على هذا التحول في الوعي من الجشع إلى الكفاية ومن الاستهلاك إلى الإنتاج المستدام كانت هذه الأفكار هي خلاصة تجربته المريرة التي دفع ثمنها غالياً من راحة عمره وسمعة حياته التي بناها بجهد

شاق ثم هدمها بيده ليعيد بناءها من جديد على أسس روحية متينة لا تهتز بعواصف الأسواق المتقلبة

الفصل التاسع والعشرون

الوداع الصامت

شعر ريان أن نهايته تقترب لم يكن مرضاً مخيفاً بل كان شعوراً بالاكتمال كان يعرف أن الرحلة شارفت على الانتهاء كان يودع كل مكان في القرية كان يودع الأشجار التي زرعها والحقول التي حرثها كان يودع الناس الذين أحبوه لوجه الله دون أن يعرفوا من هو كان يوصي بأن يدفن في مقبرة القرية البسيطة دون مبالغة في الجنازة كان يوصي بأن توزع مذكراته بعد وفاته بفترة كافية ليضمن ألا تؤثر على حياته هو كان يريد أن يموت كما عاش في سنواته الأخيرة رجلاً بسيطاً لا يملك إلا ثوباً وكتاباً كان يشعر برضا عميق عن الحياة التي عاشها في شطريها الطويلين كان الشطر الأول درساً قاسياً والشطر الثاني مكافأة إلهية على الصبر

والتوبة كان ينام كل ليلة وكأنها قد تكون الأخيرة دون خوف بل بشوق للقاء ربه الذي كان يشتاق إليه في أيام انشغاله بالدنيا كان الوداع صامتاً كما عاش وكما أراد أن يكون ختامه متوافقاً مع بداية فصله الجديد في الحياة الأبدية التي لا زوال فيها

الفصل الثلاثون

الفجر الذي لا يغيب

في صباح يوم هادئ وجدوه الفلاحون جالساً تحت شجرته المفضلة قد فاضت روحه بسلام كان وجهه يبتسم وكأنه يرى شيئاً جميلاً لا يراه الآخرون كان الكتاب موضوعاً على حجره مغلقاً بانتظار القراء كانت الشمس تشرق عليه كما أشرقت في الفصل الأول لكن هذه المرة كانت شمس الأبد لا شمس الدنيا كانت الأخبار تنتشر بهدوء في القرية ثم تصل إلى المدينة كان الناس يقرؤون مذكراته ويبدأون في التغيير كان تأثيره بعد موته أكبر من تأثيره في حياته كان البرج

في المدينة يُهدم ليبنى مكانه حديقة عامة يراها الجميع بالتساوي كان هذا هو الانتصار النهائي لريان حيث تحول رمزه في القوة إلى رمز في العطاء كان الفجر يشرق على الجميع دون تمييز كما أراد أن يعلم الناس في رسالته الأخيرة كان الظل قد زال وبقي الضوء وكان ريان قد أصبح جزءاً من التاريخ لا كرجل مال بل كرجل حكمه كان الخلود الحقيقي هو في القلوب وليس في الأبراج وكان هذا هو الدرس الأخير الذي تركه للعالم قبل أن يغادر المسرح ليرتاح من تعب اللعب بلعب الآخرين وقوانينهم التي لا تنتهي إلا بزوال الشمس التي ظن أنها لا تغيب يوماً ما

حقوق الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف

تم بحمد الله وتوفيقه

دكتور محمد كمال عرفه الرخاوي